الفصل الخامس

الأخلاق والفضائل

كما يتميز المجتمع المسلم بعقائده وشعائره ، ومفاهيمه ومشاعره ، يتميز أيضًا بأخلاقه وفضائله .

فالأخلاق والفضائل جزء أصيل من كيان هذا المجتمع ، فهو مجتمع العدل والإحسان ، والبر والرحمة ، والصدق والأمانة ، والصبر والوفاء ، والحياء والعفاف ، والعزة والتواضع ، والسخاء والشجاعة ، والإباء والشرف ، والبذل والتضحية ، والمروءة والنجدة ، والنظافة والتجمل ، والقصد والاعتدال ، والسماحة والحلم ، والنصيحة والتعاون ، والغيرة على الحرمات ، والاستعلاء على الشهوات ، والغضب للحق ، والرغبة في الخير ، والإيثار للغير ، والإحسان إلى الخلق كافة ، وبخاصة بر الوالدين ، وصلة الأرحام ، وإكرام الجار ، ودعوة الناس إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . . وكل خصال الخير ، وخلال المكرمات ، ومكارم الأخلاق .

وأولها : الإخلاص لله ، والتوبة إليه ، والتوكل عليه ، والخشية منه ، والرجاء في رحمته ، والتعظيم لشعائره ، والحرص على مرضاته ، والحذر من مساخطه ، إلى غير ذلك من المعاني الربانية التي يغفلها كثير من الناس حين يتحدثون عن الأخلاق في الإسلام ، فليست الأخلاق ما يتعلق بما بين الإنسان والإنسان فحسب ، وإنما تشمل ما بين الإنسان وخالقه أيضًا .

وهو في الجانب السلبي يحرِّم كل الرذائل ، والأخلاق الرديئة ، ويشتد في تحريم بعضها ، فيجعلها في مرتبة الكبائر . فيحرِّم الخمر والميسر ، ويعدهما

رجسًا من عمل الشيطان ، ويحرِّم الزنى وكل ما يقرِّب أو يعين عليه ، ومثل ذلك الشذوذ الجنسي الذي هو علامة على انتكاس الفطرة وانهيار الرجولة ، ويحرِّم الربا وأكل أموال الناس بالباطل ، وخاصة إذا كانوا ضعفاء كاليتامى ، ويحرِّم عقوق الوالدين وقطيعة الأرحام ، والإساءة إلى الجار ، وإيذاء الآخرين باليد أو اللسان ، ويجعل من خصال النفاق : الكذب والخيانة ، والغدر وإخلاف الوعد ، والفجور في الخصومة .

وكل رذيلة تنكرها الفِطَر السليمة والعقول الراشدة ، جاء الإسلام فأنكرها وألحّ في إنكارها .

كما أنّ كل الأخلاق الفاضلة التي تعرفها الفِطَر والعقول ويسعد بسيادتها الأفراد والجماعات ، قد أقرها وأمر بها وحثّ عليها .

والذي يتلو كتاب الله تعالى ، أو يقرأ أحاديث رسول الله ﷺ ، يرى أن هذه الأخلاق والفضائل من المقومات الذاتية للمجتمع المسلم ، وليست من الأعراض الطارئة عليه ، ولا من الأمور الهامشية في حياته ، فهي في القرآن من الصفات الأساسية للمؤمنين والمتقين الذين لا يدخل الجنة غيرهم ، ولا ينجو من النار غيرهم ، ولا يسعد بالحياة الدنيا غيرهم .

وهي في السُّنَّة من شُعَب الإيمان ، لا يتم الإيمان إلا بالتحلي بها ، والتخلي عن أضدادها . ومَن أعرض عنها فقد جانب أوصاف المؤمنين ، وتعرّض لسخط الله ولعنته ، وبرئت منه ذمة الله وذمة رسوله .

ونعرض بعض (اللوحات) القرآنية للأخلاق الإسلامية تصورها النماذج الآتية حسب ترتيب المصحف :

١- ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ

OBEIKAN.COM

ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾

(البقرة:١٧٧) .

مزجت الآية الكريمة بين العقائد : من الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين ، وبين الشعائر من الصلاة والزكاة ، والأخلاق من إيتاء المال على حبه ذوي القربى واليتامى . . إلخ ، والوفاء بالعهد والصبر في البأساء والضراء وحين البأس .

وجعلت هذا المزيج المتناسق هو حقيقة البر ، وحقيقة التدين ، وحقيقة التقوى كما يريدها الله .

٢- ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾

(الرعد:١٩-٢٢) .

تميزت هذه اللوحة الأخلاقية بالمزج بين الأخلاق الربانية كخشية الله وخوف سوء الحساب ، والأخلاق الإنسانية من الوفاء والصبر والصلة والإنفاق ، ودرء السيئة بالحسنة ، إن صح هذا التمييز . فإن المتأمل في الآية يجدها قد وصلت الأخلاق كلها بالربانية ، فالوفاء وفاء بعهد الله ، والصلة هي لما أمر الله به أن يوصل ، والصبر إنما هو ابتغاء وجه الله ، والإنفاق هو مما رزق الله ، فهي كلها أخلاق ربانية موصولة بالله ، ولهذا قرنت بإقامة الصلاة ، لأنها جميعًا ضرب من العبادة ، يتقرب به المؤمنون إلى الله ، ويتلقون به ما عند الله .

٣- ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ

OBEIKAN.COM

حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (المؤمنون: ١-١١) .

في هذه اللوحة نجد الخشوع في الصلاة ، والفعل للزكاة ، والمحافظة على الصلوات ـ وهي معدودة في إطار الشعائر والعبادات ـ جنبًا إلى جنب مع الإعراض عن اللغو ، وحفظ الفروج عن الحرام ، ورعاية الأمانات والعهود .

٤- ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ۝٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ۝٦٤ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ۝٦٦ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ۝٦٧ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ۝٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٧٠ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ۝٧١ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ۝٧٢ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ۝٧٣ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝٧٤ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴾ (الفرقان: ٦٣-٧٦) .

٥- ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٣٦ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ۝٣٧ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ

وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(الشورى : ٣٦-٤٠) .

والجديد في هذه اللوحة أو الباقة أمران في غاية الأهمية ، بالنظر إلى المجتمع المسلم :

الأول : تقرير مبدأ الشورى باعتباره عنصراً من العناصر الأساسية المكونة لشخصية المجتمع المسلم ، ولهذا وضعت الشورى بين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة المعبَّر عنه هنا بكلمة الإنفاق مما رزق الله ، ولا يخفى على أحد مكانة الصلاة والزكاة في دين الإسلام ، فما يوضع بينهما لا يكون من الأمور الثانوية أو الهينة في دين الله .

والأمر الثاني : هو الانتصار إذا أصابهم البغي ، فليس من شأن المسلم الخضوع للبغي أو الانحناء للظلم والعدوان . بل مقابلته بمثله ليزجر ويرتدع ، إلا مَن عفا عن قدرة فأجره على الله .

من هذه اللوحات أو الباقات التي قدمناها يتبين لنا منزلة الأخلاق في الإسلام ، ومكانها في تكوين المجتمع المسلم . وليست هذه كل ما في القرآن الكريم عن الأخلاق والفضائل ، فالقرآن ـ مكيه ومدنيه ـ مليء بالآيات واللوحات التي تقدم لنا نماذج خُلُقية كريمة ، تجمع بين المثالية والواقعية وتمزج الروحانيات بالماديات أو الدين بالدنيا ، في اتساق والتئام ، لم تعرفهما من قبل ـ ولا من بعد ـ شريعة ولا نظام .

ويستطيع القارئ المسلم أن يرجع إلى سورة الأنعام فيقرأ فيها الوصايا العشر من أواخرها : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا . . . . ﴾ الآيات (الأنعام : ١٥١) .

أو يرجع إلى سورة الإسراء فيقرأ الوصايا السبع عشرة : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا . . . . ﴾ الآيات (الإسراء : ٢٣) .

أو يرجع إلى سورة لقمان ويقرأ وصيته لابنه .

أو يرجع إلى سورة الدهر ويتلو فيها أوصاف الأبرار : ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . . . . ﴾ الآيات (الإنسان : ٧-٨) .

أو يرجع إلى سورة البقرة ويقرأ في أواخرها آيات الله في تحريم الربا ، ونذره لأكلة الربا ، وكيف آذنهم بحرب من الله ورسوله إن لم يتوبوا ويكتفوا برؤوس أموالهم .

أو يرجع إلى سورة النساء ، وكيف أوصت بالمرأة خيراً : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ . . . ﴾ الآية (النساء : ١٩) .

أو يقرأ في نفس السورة آية الحقوق العشرة : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ . . . . ﴾ الآية (النساء : ٣٦) .

أو يقرأ في سورة المائدة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (المائدة : ٩٠) ، وكلمة (الاجتناب) لا يستعملها القرآن إلا مع الشرك وكبائر الإثم[1] .

ويطول بنا الحديث لو أردنا أن نتتبع موارد الأخلاق في آيات القرآن العظيم ، فإن جل أوامر القرآن ونواهيه تتعلق بهذا الجانب الخطير من حياة الناس : جانب الأخلاق .

---

(١) كما في قوله تعالى : ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾ (الحج:٣٠) ، ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (النحل:٣٦)، ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ (الشورى:٣٧)، فهي أبلغ وأشد من كلمة التحريم ، وإنما اختارها القرآن هنا ، لأن اجتناب الشيء يعني البعد عنه لا مجرد تركه . فكلمة (اجتنبوا) في الخمر مثل كلمة (لا تقربوا) في الزنى .

وربما يخالفنا بعض الناس في تسمية هذه الأمور (أخلاقًا) وإنما يسميها أوامر ونواهي ، وهذا خلاف في الاصطلاح والتسمية لا في الموضوع نفسه إثباتًا ونفيًا . وقد قال علماؤنا قديمًا : لا مشاحة في الاصطلاح ، ولا يضر الخلاف في الأسماء متى وضحت المسميات .

وإنما اخترنا تسمية هذه الأمور التي جاء بها القرآن والسُّنَّة (أخلاقًا) لأن تعريف الأخلاق ينطبق عليها تمام الانطباق .

• مهمة المجتمع المسلم مع الأخلاق :

إن مهمة المجتمع بالنظر إلى الأخلاق والفضائل ، كمهمته بالنظر إلى العقيدة والمفاهيم والشعائر والعواطف .

إنها مهمة ذات ثلاث شُعَب :

١- التوجيه . ٢- التثبيت . ٣- الحماية .

فالتوجيه يكون بالنشر والدعاية ، ومختلف وسائل الإعلام والتثقيف ، والدعوة والإرشاد .

والتثبيت يكون بالتعليم الطويل المدى ، والتربية العميقة الجذور ، على مستوى الأسرة والمدرسة والجامعة .

والحماية تتكون بأمرين :

١- برقابة الرأي العام اليقظ ، الذي يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ، ويكره الفساد وينفر من الانحراف .

٢- وبالتشريع الذي يمنع الفساد قبل وقوعه ، ويعاقب عليه بعد وقوعه ، زجرًا للمنحرف ، وتأديبًا للمستهتر ، وتطهيرًا لجو الجماعة من التلوث .

وبهذه الأمور من التوجيه والتثبيت والحماية تسود أخلاق الإسلام ، وتسري فضائله في حياة المجتمع سريان العصارة الحية في الغصون والأوراق .

OBEIKAN.COM

فليس إذن بمجتمع مسلم ذلك الذي تختفي فيه أخلاق المؤمنين ، لتبرز أخلاق الفجار .

وليس بمجتمع مسلم ذلك الذي تموت فيه أخلاق القوة ، فتحيا وتنمو أخلاق الضعف .

وليس بمجتمع مسلم ذلك الذي يشيع فيه خُلُق القسوة على الضعفاء ، والخضوع للأقوياء .

ليس بمجتمع مسلم ذلك الذي تضمر فيه تقوى الله ، ومراقبته تعالى ، والخوف من حسابه ، فنرى الناس يتصرفون وكأنما هم آلهة أنفسهم ، وينطلقون وكأنما ليس هناك حساب ينتظرهم ، وإنما هم في غفلة معرضون ، وفي غمرة ساهون .

ليس بمجتمع مسلم ذلك الذي يسوده التواكل والعجز والسلبية ، في مواجهة الأمور وإلقاء الأوزار على كاهل الأقدار .

ليس بمجتمع مسلم ذلك الذي يُهان فيه الصالحون ، ويُكرم الفاسقون ، ويُقدَّم أهل الفجور ، ويؤخَّر أهل التقوى .

ليس بمجتمع مسلم ذلك الذي يُظلَم فيه المحق ، ويُحابَى فيه المبطل ، ويقال فيه للمضروب : لا تصرخ ، ولا يقال للضارب : كفّ يدك .

ليس بمجتمع مسلم ذلك الذي تفسد فيه الذمم ، وتُشترى فيه الضمائر ، ويقضى فيه كل أمر بالرشوة .

ليس بمجتمع مسلم ذلك الذي لا يوقّر فيه الكبير ولا يُرحم فيه الصغير ، ولا يُعرف لذي فضل فضله .

ليس بمجتمع مسلم ذلك الذي تتميّع فيه الأخلاق ، فيتشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال .

ليس بمجتمع مسلم ذلك الذي تشيع فيه الفاحشة ، ويفقد فيه الرجال الغيرة ، ويفقد النساء الحياء .

ليس بمجتمع مسلم ذلك الذي لا يكاد الناس يتكلمون فيه أو يعملون أو يتصرّفون إلا رياءً ونفاقًا ، وطلبًا للشهرة والجاه ، ولا تكاد ترى فيه جنديًّا مجهولاً ، من المخلصين البررة ، والأتقياء الأخفياء ، الذين إذا حضروا لم يُعرفوا ، وإذا غابوا لم يُفتقدوا .

ليس بمجتمع مسلم ذلك الذي تسوده أخلاق المنافقين مِن كل مَنْ حدَّث فكذب ، ووعد فأخلف ، واؤتمن فخان ، وعاهد فغدر ، وخاصم ففجر .

ليس بمجتمع مسلم ذلك الذي يهمل فيه الآباء الأبناء ، ويعق فيه الأبناء الآباء ، ويتجافى فيه الإخوان ، وتتقطع فيه الأرحام ، ويتناكر فيه الجيران ، وتنفق فيه سوق الغيبة والنميمة وفساد ذات البَيْن ، وينهزم فيه البذل والإيثار ، أمام الشح والأنانية وحب الذات .

فالمجتمع المسلم ـ ولا شك ـ (مجتمع أخلاقي) بكل ما تحمله كلمة (الأخلاق) من شمول وسعة ، **ليس** مجتمعًا تسيره المنافع المادية ، أو الأغراض السياسية ، أو الاعتبارات العسكرية وحدها .

كلا . . بل هو مجتمع تحكمه فضائل ومُثُل عليا ، يلتزم بها ، ويتقيد بحدودها مهما يكلفه ذلك من مشقات وتضحيات ، ولا عجب في ذلك فقد قال رسول الله ﷺ : « إنما بعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق »[1] .

فلا انفصال في هذا المجتمع بين العلم والأخلاق ، ولا بين الفنّ والأخلاق ، ولا بين الاقتصاد والأخلاق ، ولا بين السياسة والأخلاق ، ولا بين الحرب والأخلاق ، وإنما الأخلاق عنصر يهيمن على كل شؤون الحياة وتصرفاتها ، صغيرها وكبيرها ، فرديها وجَماعيها .

* * *

---

(١) رواه أحمد (٨٩٥٢) وقال مخرجوه : صحيح ، والبخاري في الأدب المفرد في حسن الخلق (٢٧٣) ، والحاكم في تواريخ المتقدمين (٦١٣/٢) وقال : على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٥) ، عن أبي هريرة .

OBEIKAN.COM